الإلحاد الجديد والمغالطات العلميّة

الدكتور نور الدين أبو لحية[1]

خلاصة المقالة:

مع ظهور المذاهب الفلسفيّة المادّيّة والوضعيّة ونظرتها الخاصّة إلى التاريخ العلميّ للبشريّة وتقسيمها إيّاه إلى ثلاثة أطوار: الطور اللاهوتيّ، والطور الميتافزيقيّ، والطور العلميّ الوضعيّ.. وسخريتها من كلّ الأطوار الغيبيّة واللاهوتيّة، واعتبارها الطور العلميّ هو الوحيد الجدير بالاحترام، ودعوتها إلى العزوف عن البحث عن أصل الكون ومصيره أو علله الأولى، واعتبارها البحث في ذلك أو الاهتمام به أوهامًا وخرافةً؛ كان لا بدّ لنا من التعرّف على درجة المصداقيّة العلميّة التي يتحلّى بها الملاحدة في مقولاتهم هذه، وخصوصًا الجدد منهم، فهل هم حقًّا يعتمدون في أطروحاتهم الداعمة للإلحاد المنهج العلميّ؟ وهل يتحلّون واقعًا بالعلميّة الكافية، أم أنّهم يقعون في الأخطاء نفسها التي يرمون بها المؤمنين؟

وقد وجدنا ـ خلال البحث عن الإجابة على هذا التساؤل ـ أنّ كلّ ما يمارسه الملاحدة من تفسيرات علميّة للكون والحياة، وإبعادهما عن الحاجة إلى الله ليس سوى مغالطات كبيرة لا حظّ لها من العلم، ولا من المصداقيّة، بل إنّ العلم نفسه يتبرّأ منها.

---
(1) باحث في الفكر الإسلاميّ، وأستاذ جامعيّ، من الجزائر.

فهم يقعون في أوّل مغالطة حين ينطلقون في أبحاثهم ونظريّاتهم من التفكير الرغبويّ؛ بدل التفكير الواقعيّ، ومن الأمنية لا من الواقع، ومن الهوى لا من الحقيقة، ولهذا يستبقون المقدّمات بالنتائج، ويؤوّلون النتائج أو يتخطّوها في حال مخالفتها لمقاصدهم.

ثمّ تجرّهم هذه المغالطة إلى مغالطات كثيرة يؤسّسون عليها أبحاثهم التي لا تنطلق من العقلانيّة والموضوعيّة والحياد التامّ؛ وإنّما تنطلق من العاطفة المجرّدة التي تريد أن تؤكِّد ما لديها، لا أن تصحّحه أو تراجعه، وهذه المغالطات كثيرة جدًّا، وتتناقض تمامًا مع المناهج العلميّة المقرّرة، بل والمطبَّقة في كلّ العلوم، فهم يطبّقونها في كلّ شيء؛ إلا في الحقائق التي قد تدعوهم إلى الإيمان بالله.

كلمات مفتاحيّة:

الإلحاد، العلم، الدين، الكون، المغالطات العلميّة، الواقعيّة العلميّة، التفكير الرغبويّ.

مقدّمة:

ربّما تكون دعوى [العلميّة] أو [المنهج العلميّ] هي الأيقونة التي يستعملها الإلحاد في كلّ عصوره، فمنذ عهد ديموقريطَسْ؛ ذلك الفيلسوف اليونانيّ المادّيّ صاحب المذهب الذرّيّ، والملاحدة يصفون المؤمنين بالجهل وقلّة العقل، ويرمونهم بالدجل والخرافة والابتعاد عن العلميّة والعقلانيّة، أو كما عبّر عن ذلك توماس جفرسون ـ على ما ينقل عنه دوكينز ـ بقوله: «رجال الدين من مختلف الطوائف يعانون من تقدّم العلم؛ كما يعاني السحرة من موعد شروق الشمس، ويعبسون في وجه تلك الإطلالة التي تعلنهم بأنّ تلك الوهام التي يعتاشون عليها في طريقها للزوال»[1].

وهذا ما كان سائدًا في الغرب في عصر النهضة، فقد تصوّروا أنّ العلم قد حلّ كلّ شيء، وأنّه لا حاجة للإله، أو كما عبّر عن ذلك بعضهم، فقال: «لقد أثبت (نيوتن) أنّه لا وجود لإله يحكم النجوم، وأكّد (لابلاس) بفكرته الشهيرة أنّ النظام الفلكيّ لا يحتاج إلى أيّ أسطورة لاهوتيّة.. وقام بهذا الدور العالمان العظيمان (دارون) و(باستور) في ميدان البيولوجيا.. وقد ذهب كلّ من علم النفس المتطوّر والمعلومات التاريخيّة الثمينة التي حصلنا عليها في هذا القرن بمكان الإله، الذي كان مفروضًا أنّه هو مدير شؤون الحياة الإنسانيّة والتاريخ»[2].

وبناءً على هذا ظهرت المذاهب المادّيّة والوضعيّة، التي تقسِّم التاريخ العلميّ للبشريّة إلى ثلاثة أطوار: الطور اللاهوتيّ، والطور الميتافزيقيّ، والطور العلميّ الوضعيّ.. ثمّ تسخَر من كلّ الأطوار، وتعتبر الطور العلميّ هو الوحيد الجدير بالاحترام، وتدعو إلى العزوف عن البحث عن أصل الكون ومصيره أو علله الأولى، وتعتبر البحث في ذلك أو الاهتمام به أوهامًا وخرافةً.

(1)دوكنز، ريتشارد: وهم الإله، ترجمة: بسّام البغدادي، لا ط، لا ت، ص113.
(2)نقلًا عن: خان، وحيد الدين: الإسلام يتحدّى مدخل علميّ إلى الإيمان، تعريب: ظفر الإسلام خان، مكتبة الرسالة، ص18.

وهكذا راح فرويد وأشباهه من علماء النفس يفسّرون وجود الله تفسيرًا نفسيًّا لا علاقه له بالعلم ولا بالعقل، فالناس في رأي فرويد يميلون إلى الاعتقاد بوجود أب وراء هذا الكون؛ لأنّهم؛ بوصفهم أطفالًا، بحاجة ماسّة إلى رعاية أب، وهكذا، فإنّ الإنسان ـ عند فرويد وغيره في ذلك العصر ـ هو الذي يخلق الله، لا العكس[1] .

وبناءً على هذا اعتبر الدين مرضًا من الأمراض النفسيّة، فقال: «يمكن القول بأنّ الدين هو عصاب البشريّة الوسواسيّ العامّ، وبأنّه ينبثق، مثله مثل عصاب الطفل، عن عقدة أوديب، عن علاقات الطفل بالأب. وانطلاقًا من هذه التصوّرات، يمكننا أن نتوقّع أن يتمّ العزوف عن الدين عبر سيرورة النموّ المحتومة التي لا رادّ لها»[2].

لكنّ كلّ المواقف السلبيّة التي نطق بها دعاة الإلحاد القديم لا تشكِّل شيئًا أمام دعاوى أصحاب الإلحاد الجديد الذين تصوّروا أنّهم وحدهم أصحاب العلم والعقل والحكمة، وأنّ من عداهم ليسوا سوى بلهاء وأغبياء، ولا علاقة لهم بالعلم، ولا بالمنطق، ولا بأيّ أداة من أدوات التفكير.

ومن أمثلة تلك التعبيرات، قول ريتشارد داوكنز ـ صاحب المؤلّفات والمؤسّسات الكثيرة الداعية للإلحاد ـ متسائلًا: «لماذا يعتبر الله تفسيرًا لشيء ما؟»، ثمّ أجاب على تساؤله بقوله: «هو ليس تفسيرًا، بل هو بالأحرى عجز في التفسير واللامبالاة، وهو عبارة عن [لا أعرف] متنكّرة بالروحانيّات والطقوس.. وعندما يعطي الناس لله هذا الدور في شيء ما، فهذا يعني عادة بأنّهم لا يملكون أيّ دراية بهذا الشيء، ولذلك فإنّهم يعطون التفسير لأسطورة سماويّة لا يمكن أن نعرفها أو نصل إليها يومًا ما، ولو سألت من

(1) انظر: مسلان، ميشال: علم الأديان مساهمة في التأسيس، ترجمة: عزّ الدين عناية، ط1، المركز الثقافيّ العربيّ؛ منشورات كلمة، ص143 وما بعدها.

(2) فرويد، سيغموند: قلق في الحضارة، ترجمة وتحقيق: جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، ص60.

أين أتت تلك الشخصيّة، فالاحتمالات هي أن تحصل على إجابة ضبابيّة، نصف فلسفيّة عن وجوده الأزلي، أو وجوده خارج الطبيعة، والتي بالطبع لا تفسِّر شيئًا على الإطلاق»[1].

كما عبّر عن ذلك بصياغة أخرى أكثر وضوحًا، فقال: «الفراغات بالأساس في عقل الخلوقيّين، تملأ بواسطة الإله»[2]؛ أيّ أنّ المؤمن يلجأ إلى الله بسبب عجزه عن التفسير العلميّ لما يراه من ظواهر، وبذلك يكون الإيمان حائلًا بينه وبين البحث عن حقائقها وتفسيرها تفسيرًا علميًّا.

أمّا عالم الفيزياء البريطانيّ الشهير [ستيفن هوكينغ] فلم يكنْ يدع مناسبة إلا ويشهر فيها إلحاده، حيث صرَّح أكثر من مرّة أنّه «ليس هناك حاجة إلى وجود خالق لنشأة الكون».

ثمّ أضاف «الدين مثله مثل العلم، إذ كلاهما يفسّران أصل الكون، ولكن أعتقد أنّ العلم هو أكثر إقناعًا، ويقدِّم باستمرار إجابات لأسئلة يعجز الدين عن الإجابة عليها.. ولا أحد يستطيع أن يثبت وجود الخالق، ولكنْ يمكن التفكير في كيفيّة نشوء الكون بشكل عفويّ، ونحن نعلم أنّه لا يمكن تقديم أيّ تفسير عقليّ؛ إلا عن طريق العلم، وفي النهاية سنعرف كلّ ما يعرفه الخالق إذا كان موجودًا فعلًا»[3].

بناءً على هذا الموقف، والذي يتباهى به الملاحدة، نحاول في هذه المقالة أن نتعرّف على مدى المصداقيّة العلميّة التي يتحلّى بها الملاحدة، وخصوصًا الجدد منهم، فهل هم حقًّا يعتمدون في أطروحاتهم الداعمة للإلحاد المنهج العلميّ؟

(1) دوكينز، وهم الإله، م.س، ص136.

(2) م.ن، ص464.

(3)كعواس، حميد: «عالم فيزيائيّ بريطانيّ شهير يجدّد نفيه وجود خالق للكون»، موقع هسبريس، الخميس 02 أكتوبر 2014 على الرابط التالي:
https://www.hespress.com/sciences-nature/242317.html

وهل يتحلّون واقعًا بالعلميّة الكافية، أم أنّهم يقعون في الأخطاء نفسها التي يرمون بها المؤمنين؟

لذا، سنحاول في هذه المقالة، من خلال بعض النماذج التي يطرحها الملاحدة، وخصوصًا في علوم المادّة والحياة، أن نبيّن بعض الخدع التي يمارسونها في الدعوة للإلحاد، وقد اقتصرنا على هذين النوعين من العلوم؛ باعتبارهما المجال الأكثر اهتمامًا من الملاحدة؛ فالأوّل يشمل تلك العلوم التي تفسِّر نشأة الكون والتصميم البديع الذي بُنِيَ عليه، والثاني يشمل تلك العلوم التي تفسِّر الحياة ونشأتها وتنوّعها والطاقات المودَعَة فيها.

وقبل أن نبرهن على ذلك ينبغي أن نشير إلى أهمّيّة تعرّف كلّ من يريد مواجهة الإلحاد أو مناظرة دعاته؛ على أمثال تلك النماذج، ومدى مناقضتها للعلم، وكثرة الثغرات التي تحول بينها وبين التحقّق بالمصداقيّة؛ فمن مظاهر تلك الأهمّيّة:

1. تيسير الأمر على العلماء والمفكّرين والباحثين ذوي التوجّهات الفلسفيّة أو الدينيّة، والذين يتصوّرون أنّ هناك علومًا دقيقة وصعبة تحتاج إلى تخصّص ليستطيعوا من خلالها الردّ على الملاحدة، وكلّ ذلك غير صحيح، بل الأمر فيها أشبه بالمغالطات السفسطيّة منه بالحقائق العلميّة.

2. عدم التسليم الجدليّ بما يذكره الملاحدة؛ ذلك أنّ من قوانين التسليم الجدليّ وجود الإمكانيّة أو تحقّقها، والكثير ممّا يذكره الملاحدة، ويصفونه بالعلميّة، لا حظّ له من كليهما، بالإضافة إلى أنّ التسليم الجدليّ نوع من الاعتراف بما يذكرونه من مغالطات، لذلك كان موقف المطالب بالبيّنة على إثبات الحقائق العلميّة أكثر إحراجًا للملحد من المسلّم له جدلًا.

3. تنبيه المسارعين إلى ربط كّل ما يذكره علماء الغرب من نظريّات وفرضيّات بالقرآن الكريم، أو بالروايات الشريفة، على مدى خطورة

ذلك؛ فقد رأيت من راح يبرهن على كون نظريّة الأكوان المتعدّدة سبق قرآنيّ؛ بسبب ذِكْر الله -تعالى- لتعدّد العوالم، مع كونهما معنيين مختلفين تمامًا؛ أحدهما: يدلّ على التوحيد الخالص، والقدرة المطلقة، والغائيّة الحكيمة، والثاني: يبرّر الإلحاد والقول بالصدفة، ويتصوّر أنّ هذه الأكوان الكثيرة مجرّد عدد ضخم وعشوائيّ؛ ليظهر من خلالها هذا الكون؛ بوصفه احتمالًا من الاحتمالات.

4. استبدال الدفاع عند مناظرة الملاحدة بالهجوم؛ ذلك أنّ كلّ الخرافات التي ردّدها أهل الجاهليّات المختلفة أو المنحرفون عن الأديان صار لها وجود في الحقول العلميّة، وبذلك أصبحت تلك النظريّات عرضة للتهكّم والسخرية؛ كما قال بعضهم معبّرًا عن حقيقة نظريّة التطوّر بقوله: «ليست الأدلّة ما تجعل الداروينيّة «حقيقة»؛ وإنّما الفلسفة المادّيّة. روى ريتشارد ليونتن، عالم الوراثة في جامعة هارفرد، في عام 1997 كيف قد دافع وكارل ساجان في إحدى المرّات عن الداروينيّة في مناظرةٍ، ثمّ فسَّر قائلًا: نقف في صف العلم رغم سخافة بعض تناقضاته البارزة... لأنَّ لدينا التزامًا ذا أولويّة، التزامًا تجاه المادّيّة»[1].

أولًا: استبدال الواقعيّة العلميّة بالتفكير الرغبويّ:

وهو ما ينطلق منه الملاحدة في عرض مغالطاتهم المرتبطة بالإلحاد؛ ذلك أنّ العلم يقتضي موافقة الواقع موافقة تامّة، وما عداه يعتبر جهلًا أو خيالًا أو ظنًّا كاذبًا، ولا علاقة له بالعلم[2].

ويُعبّر عن تلك المخالفة في حال ارتباطها بالرغبة النفسيّة [التفكير الرغبويّ] أو [التفكير بالتمنّي]، وهو ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ

(1) نقلًا عن: يحيى، هارون: احتضار منظومة الدجّال الداروينيّ، لا ط، لا ت، من موقعه الإلكترونيّ، ص48.
(2) انظر: القِنَّوجي، أبو الطيّب محمد صديق خان: في تعريف العلم أبجد العلوم، ط1، دار ابن حزم، 1423هـ.ق/ 2002م، ص31.

بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[1]، فالآية الكريمة اعتبرت كلّ ميزان وضعه البشر من غير العمل مجرّد أمانٍ وأوهامٍ وتوقّعاتٍ لا علاقة لها بالواقع.

وضرب القرآن الكريم لذلك مثالًا: بدعوى بني إسرائيل أنّ النار لن تمسّهم إلا أيّامًا معدودة، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةًۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

وبناءً على ذلك، كان التفكير الرغبويّ مغالطة من المغالطات التي يخادع بها الإنسان نفسه، ليصوّر الواقع بالصورة التي يريد، لا بالصورة التي هو عليها، ولهذا أطلق عليه الكاتب البريطاني كريستوفر بوكر مصطلح [دائرة الخيال]، والتي تبدأ عادة ـ كما وصفها ـ «بانخراط الفرد في حلم يعيش فيه ويعتقد بصحّته، ثمّ لا يلبث أن يفيق بعد أن يدرك أنّ الواقع يعمل ضدّ أمنياته، فيدخل في قنوط، وهنا يسعى إلى بذل جهد؛ بغية أن يطوِّع الواقع لحلمه، دون جدوى، فيدخل كابوسًا مخيفًا، وتتبخّر أمنياته»[3].

وما ذكره كريستوفر ينطبق تمامًا على مواقف الملاحدة الجدد من الحقائق العلميّة الثابتة، التي تبرهن على ضرورة وجود الله، وقد عبّر عالم الفيزياء والفلك ورأس علماء وكالة (ناسا) (روبرت جسترو) في كتابه [الله والفلكيّون] عن هذا النوع من التفكير عند حديثه عن الأدلّة العلميّة المثبتة لنشأة الكون، فقال: «اللاهوتيّون عامّة مبتهجون ببرهان نشأة الكون، في حين أنّ الفلكيّين غاضبون بصورة غريبة. لقد آل الأمر إلى أنّ

(1) سورة النساء، الآية 123.
(2) سورة البقرة، الآية 80.
(3) حسن، عمار علي: «آفة التفكير بالتمنّي»، موقع 24، السبت 31 أكتوبر 2015م/ س22:59، على الرابط التالي:
http://24.ae/article/197112/.

العلماء يتصرّفون على الطريقة التي نتصرّف بها نحن لما تكون اعتقاداتنا مخالفة لما دلّ عليه الدليل»[1].

ويضيف -أيضًا-: «تنتهي القصّة بالنسبة للعالِم الذي عاش بإيمانه بقوّة العقل؛ كمنامٍ سيّىء. لقد تسلّق جبال الجهل، ويكاد يقهر أعلى قمّة، وبينما هو يرفع نفسَه إلى الصخرة الأخيرة، يُفاجأ بتهنئة من جَمْع من اللاهوتيّين الجالسين هناك منذ قرون»[2].

ومثله عالم الفلك والرياضيّات (أرثر إدنجتن) الذي عبّر عن امتعاضه الشديد من الأدلّة على حدوث الكون، فقال: «إنّ أصل الكون هو فسلفيًّا أمر بغيض»[3].

ومثلهما كان موقف مكتشف إشعاع الخلفيّة الكونيّة الميكرويّ المثبت لنشأة الكون (روبرت ويلسن) الذي كان من أنصار قِدَم العالم أو الحالة الثابتة، لكنّه بسبب اكتشافه ذلك؛ قال: «لقد أحببت فلسفيًّا نظريّة الحال الثابتة، وعليّ بوضوح أن أتراجع عن ذلك»[4].

وقد عبّر عن هذا المنهج الجديد في الردّ على الانبثاق الكونيّ عالم الفيزياء الفلكيّة (كريستوفر إشام)، فقال: «ربّما أفضل حجّة لصالح الطرح القائل إنّ (الانفجار العظيم) يؤيّد الإيمان بالله هو التململ الواضح الذي قُوبِل به من طرف بعض الفيزيائيّين الملاحدة. وقد أدّى ذلك إلى ظهور أفكار علميّة؛ مثل (الخلق الدائم)، أو (الكون المتذبذب)، وقد تمّ تقديمها بحماسة تفوق بكثير قيمتها الحقيقيّة ممّا يلزم المرء بأنْ يرى دوافع نفسيّة أعمق بكثير من الرغبة المألوفة للمنظّر لدعم نظريّته»[5].

(1) نقلًا عن: عامري، سامي: فمن خلق الله؟: نقد الشبهة الإلحاديّة [إذا كان لكلّ شيء خالق، فمن خلق الله؟] في ضوء التحقيق الفلسفيّ والنقد الكوسمولوجيّ، مركز تكوين للدراسات والأبحاث، 2016م، ص95.

(2) م.ن.

(3) م.ن.

(4) م.ن.

(5)م.ن.

وهم يعتمدون في ذلك على البحث عن أكبر عدد من الاحتمالات والفرص ليتحقّق من خلالها الكون بالصورة التي نراه عليها.. ولذلك نراهم يضعون ترليونات الاحتمالات التي تفوق كلّ الممكنات، في سبيل إلغاء قوّة خارجيّة أنشأت الكون وصمّمته، حتى أنّ دوكينز أثناء ردّه على المعجزات؛ باعتبارها تدلّ على وجود قوّة خارجيّة راح يقول في كتابه صانع الساعات الأعمى: «المعجزة عبارة عن شيء ممكن الحدوث، لكنّ حدوثه مفاجئ جدًّا. فإذا لوّح تمثال رخامي لمريم العذراء بيده تجاهنا فعلينا اعتبار ذلك معجزة، لأنّ كلَّ خبراتنا ومعارفنا تؤكّد لنا عجز الرخام عن هذه الحركة.. لكنّ العلم لن يحكم على هذه الحادثة باعتبارها مستحيلة تمامًا، ولكنّها فقط غير محتملة الحدوث للغاية»[1].

ويعبّر في موضع آخر عن هذه الفكرة بصيغة أكثر وضوحًا، فيقول: «فرضيّتي بأنّ الأحداث التي يشيع ذكرها؛ كمعجزات ليست أمورًا خارقة للطبيعة، لكنّها جزءٌ من سلسلة من الأحداث الطبيعيّة الأكثر أو الأقلّ احتماليّة.. المعجزة، بكلمات أخرى، في حال حدثت، فإنّ ذلك ضربة حظّ مبهرة، لا تنقسم الأحداث برتابة إلى أحداث طبيعيّة ومعجزات ... فبمجرّد إعطاء وقتٍ أو فرصٍ غير محدودة، فإنّ أيَّ شيءٍ ممكن»[2].

وبناءً على هذا، فقد طرح في كتابه [وهم الإله] إمكانيّة توفّر مليارات مليارات الكواكب التي تصلح للحياة في مكان ما من الكون الواسع، حتّى يكون كوكبنا هذا، وبالصورة التي هو عليها مجرّد احتمال من الاحتمالات، أو كما عبّر عن ذلك بقوله: «سأقولها ثانية، إذا كانت احتمالات تولّد حياة على كوكبٍ ما عفويًّا واحد إلى مليار، يبقى الحدث غير المتوقّع مع ذلك مفاجأة ممكنة الحدوث على مليار كوكب»[3].

---

(1) دوكينز، ريتشارد: صانع الساعات الأعمى، لماذا تُظهِر أدلة التطوّر كوناً بلا مصمم، نيويورك، نورتون، 1996م، ص159.

(2) م.ن، ص139.

(3) دوكينز، وهم الإله، م.س، ص373-374.

وبناءً على هذا سنذكر هنا أنموذجين يعبّران بوضوح عن بعض المغالطات العلميّة التي استخدمها الملاحدة للهروب من الأدلّة العلميّة القطعيّة الدالّة على حدوث الكون، أو ما يسمّى بالانبثاق الكونيّ.

1. الأنموذج الأوّل: الأكوان المتعدّدة:

تعتبر نظريّة الأكوان المتعدّدة من أكثر النظريّات شهرةً وشيوعًا، على الرغم من عدم التحقّق منها علميًّا، وبأيّ وسيلة من الوسائل، بل على الرغم من أنّه لا يمكن التثبّت منها بحال من الأحوال؛ ذلك أنّ أصحاب النظريّة أنفسهم يذكرون أنّ كلّ كون من الأكوان منفصل تمامًا عن الأكوان الأخرى، بل له قوانين تختلف اختلافًا جذريًّا عن غيرها، والسبب في ذلك ـ كما يذكرون ـ يرجع لما يُعرف بأُفق الجسيم، وهو أقصى مسافة من تلك الجسيمات التي تحمل المعلومات، والتي ما إنْ تصل للراصد حتّى يكون عمر الكون قد انتهى منذ مليارات السنوات الضوئيّة، وأيّ كون آخر حتمًا هو خارج أُفق الجسيم.

ولأجل ذلك يذكر علماء الفيزياء والفلك الكبار استحالة اعتبار هذه النظريّة حقيقة علميّة، لا الآن، ولا في المستقبل؛ للاستحالة العلميّة والمنطقيّة لإثباتها، وقد قال عالم الكونيّات [جورج إليس]، معبّرًا عن ذلك: «إنّ فرضيّة الأكوان المتعدّدة ليست من العلوم، ولا توجد داخل دائرة العلم، وإنّما في إطار الفلسفة».

ولذلك، فإنّ هذه النظريّة التي لم تدلّ عليها المخابر، ولا حتّى العقل المجرّد، ليست سوى مقولات خياليّة تحاول أن تتدارك المقولات الإلحاديّة القديمة التي كانت ترى أنّ الكون كافٍ نفسه بنفسه، ولذلك احتاج الملاحدة لوضع أنفسهم في هذا المأزق للبحث عن أكوان متعدّدة للخروج من مأزق الثوابت الكونيّة التي هم أنفسهم أطلقوا عليها الثوابت المعدّة بعناية.

وقد أشار الفيزيائيّ الشهير البروفسور [جون بولكنجهورن] إلى هذا

المعنى، فقال ـ عند حديثه عن هذه النظريّة ـ: «إنّها ليست فيزياء.. إنّها في أحسن الأحوال فكرة ميتافيزيقيّة، ولا يوجد سبب علميّ واحد للإيمان بمجوعة من الأكوان المتعدّدة.. إنّ ما عليه العالم الآن هو نتيجة لإرادة خالق يحدّد كيف يجب أن يكون»[1].

بل إنّ [ريتشارد داوكنز] في حواره مع [ستيفن واينبرج] بيّن سبب اعتماد هذه النظريّة والاهتمام بها، وهو كونها وسيلة لنفي الإله، وقد قال معبّرًا عن ذلك: «إذا اكتشفت هذا الكون المدهش المعدّ فعليًّا بعناية.. أعتقد أنّه ليس أمامك إلا تفسيرين اثنين.. إمّا خالق عظيم، أو أكوان متعدّدة»[2].

وأشار هوكينج إلى ذلك أيضًا، فقال: «تمامًا مثلما فسَّر دارون ووالاس كيف إنّ التصاميم المعجزة المظهرة في الكائنات الحيّة من الممكن أن تظهر بدون تدخّل قوّة عظمى، فمبدأ الأكوان المتعدّدة من الممكن أن يفسّر دقّة القوانين الفيزيائيّة بدون الحاجة لوجود خالق سخّر لنا الكون.. فبسبب قانون الجاذبيّة، فالكون يستطيع ويمكنه أن ينشيء نفسه من اللاشيء.. فالخلق الذاتيّ هو سبَّب أنّ هناك شيء بدلًا من لا شيء، ويفسّر لنا لماذا الكون موجود، وكذلك نحن»[3].

وحتّى يتلافى ستيفن هوكينج الانتقادات التي توجَّه إلى هذه النظريّة بخصوص تفسير دّقة الكون والثوابت العجيبة التي تحكمه راح يفترض في كتابه [التصميم العظيم] وجود 10 أس 500 كون.. أي 10 وأمامها 500 صفر، وهو ـ كما يذكر بعض الباحثين ـ لا يختلف في ذلك عمّن يحضّر سيّارة مفكّكة من كلّ أجزائها؛ ابتداء من أصغر مسمار فيها.. ثمّ يقول: إنّ هناك احتماليّة رياضيّة لتكون هذه السيارة صدفة وعشوائيّة، وبالطبع،

(1) انظر: مقالة بعنوان «عالم الفيزياء الملحد ستيفن هوكينج وأفكاره الإلحاديّة الخيالية في نظر العلماء والمتخصّصين»، م.س.
(2) م.ن.
(3) م.ن.

فإنّ الإجابة على استحالتها رياضيًّا تتخطّى 1 إلى 10 أس 50 أو 70 أو حتّى 100.. لأنّ السؤال أصلًا خطأ.. وذلك لأنّ الأجزاء لن تتحرّك من ذاتها وتتراكب ويدخل بعضها في بعض؛ إلا بفاعل قدير حكيم يعلم ما يفعل ويريده.

2. الأنموذج الثاني: الكون المتذبذب:

وهي نظريّة تحاول تجاوز الانبثاق الكونيّ، والعوة إلى الحالة الثابتة؛ باعتبار أنّ الكون في حال توسّع ثمّ انكماش دائبين منذ الأزل، دون بداية، وقد قال الفيزيائيّ البريطانيّ (جون غربن)، معبّرًا عن الأيديولوجيّة التي تنطلق منها هذه النظريّة: «الإشكال الأكبر في نظريّة الانفجار العظيم المتعلّقة بنشأة الكون هو فلسفيّ -وربّما حتّى لاهوتيّ-، وهو: ماذا كان قبل الانفجار؟ كان هذا الإشكال وحده كافيًا لمنح دفعة أولى لـ(نظريّة الحال الثابتة)، ولكنْ بعد أن تبيّن ـ للأسف ـ أنّ تلك النظريّة معارضة للأمور المشاهدة، كان الطريق الأفضل للالتفاف حول هذا الإشكال الأوّليّ هو في تقديم نموذج يتوسّع فيه الكون من (مفردة) (singularity)، ويعود فينهار بعد ذلك، ثمّ يعيد دورته هذه دون نهاية»(1).

وقد انتُقدت هذه النظريّة انتقادات كثيرة جدًّا؛ لمخالفتها لكلّ القوانين العلميّة، ولعدم إمكانيّة إثباتها نظريًّا أو عمليًّا؛ ذلك أنّ الكون المتذبذب ـ في حال التسليم جدلًا بإمكانيّته ـ لا يمكن أنْ يكون أزليًّا؛ لأنّه لا يستطيع أن يقاوم عوامل عدّة؛ مادّيّة وقانونية مطلوبة، وقد قال كلّ من (زلدوفيتش) و(نوفيكوف) عن هذا الأنموذج: (النموذج متعدّد الدورات له مستقبل لا نهائيّ، أمّا ماضيه فهو متناهٍ»(2).

وعندما حسب الفلكيّ (جوزيف سلك) عدد المرّات الممكنة لتاريخ

(1) نقلًا عن: عامري، فمن خلق الله؟: نقد الشبهة الإلحاديّة...، م.س، ص109.
(2) م.ن، ص110.

تذبذب الكون؛ انطلاقًا من المستوى الأنتروبي الحالي للكون، وجد أنّ الحالات الممكنة لا يمكن أن تتجاوز مئة مرّة[1].

ثانيًا: عدم تطبيق مناهج البحث العلميّ:

تقوم الحقائق العلميّة على دعائم وأسس منطقيّة يقبلها العقل، وتنسجم معه، ويمكن إثباتها بالطرق المختلفة. وتُعدّ الطروحات العلميّة التي لا تتوفر على هذه الأسس، ولا تنطلق من هذه المناهج، مجرّد دعاوى لم تثبت، وفرضيّات لم تتحقّق.

وقد وُضعت لأجل تمييز الحقائق العلميّة عن الدعاوى والفرضيّات الكثير من القوانين العلميّة التي اتّفقت عليها البشريّة، وعلى أساسها تحكم على أيّ دعوى بكونها فرضيّة أو نظريّة أو حقيقة، ولذلك كان على كلّ مَن يناقش الأطروحات الإلحاديّة المتلبّسة بلباس العلم أنْ يتقن تطبيق أمثال تلك القوانين على تلك الأطروحات، كما يتقن فنّ المنطق وعلم الجدل وغيرهما من العلوم الأساسيّة للحوار مع الملاحدة.

ومن تلك القوانين العلميّة؛ مثلًا: ما يُطلق عليه [شفرة أوكام][2]، وهي شفرة أو قانون يطبّق على مدى واسع، وتتحاكم إليه العلوم المختلفة، وهو متّفق عليه علميًّا، بل هو أحد أهمّ المبادئ المنطقيّة التي تشمل تطبيقاتها طيفًا واسعًا من المجالات المتباينة من علم المنطق، ونظريّة المعرفة، والاقتصاد، وحتّى الفلك والفيزياء، وربّما الرّياضيات.. وبفضل هذا المبدأ فُصِل وإلى غير رجعة بين الفيزياء والميتافيزياء.. وبين الكيمياء والخيمياء[3].

(1)م.ن.

(2) انظر: مقالة بعنوان: «شفرة أوكام هي أحد أهمّ المبادئ المنطقيّة وأوسعها استخدامًا»، على موقع الباحثون السوريّون، على الرابط التالي:
https://www.syr-res.com/article/10947.html

(3) الخيمياء: هي علم ينظر في المادّة التي يتمّ بها تكوين الذّهب والفضّة بالصّناعة، ويشرح العمل الذي يوصِل إلى ذلك، وتلجأ الخيمياء إلى الرّؤية الوجدانيّة في تعليل الظّواهر، وكثيرًا ما لجأ الخيميائيّون إلى تفسير الظّواهر الطّبيعية غير المعروفة لديهم على أنّها ظواهر خارقة، وترتبط بالسّحر.

وهذا المبدأ منسوب إلى الفيلسوف الإنكليزيّ [ويليام أوكام] حيث استنتج في أبحاثه المتعلّقة بهذا المبدأ أنّ «التعدّديّة لا ينبغي أن تفرض دون ضرورة، أي أنّ الأولويّة للأبسط وللأقلّ تكلفة، والأقلّ تشعّبًا بطبيعة الحال»، وقد عبّر عن ذلك بقوله: «من العبث القيام بعدد أكبر من الخطوات لإنجاز شيء ما، بينما يمكننا إنجازه بعدد خطوات أقلّ».

وقد استخدمه كبار العلماء؛ كغاليلو غاليلي في دفاعه عن أنموذجه الفلكيّ للسماوات.. وكان لنيوتن نصيبه في استخدامه أيضًا، في تفضيل الفرضيّة الأبسط على الفرضيّات المنافسة، وعرفت طريقة نيوتن هذه بسيف نيوتن الليزريّ الملتهب، حيث يصف نيوتن ذلك بقوله: «علينا أن نقبل فقط بالأسباب التي تلزم وتكفي لتفسير جميع جوانب الظاهرة المدروسة».

بل إنّ الملاحدة الجدد يستخدمونه بكثرة ـ ويسيئون استخدامه ـ ومن أمثلة ذلك: قول [ريتشارد دوكنز] في كتابه [وهم الإله]: «تاريخيًّا، سعى الدين إلى تفسير وجودنا، وطبيعة الكون، محاولًا مساعدتنا في إدراك ذواتنا؛ إلا أنّ العلم خَلَف الدين في زمننا الحاضر».

وطبّقه عالـم الكونيّات [سين كارول] بقوله: «استطاع التقدّم العلميّ على مدار الخمسة قرون الأخيرة أنْ يجرّد الله من أدواره التي يلعبها في هذا العالـم؛ ولذلك كان استدعاء الله لتفسير الظواهر الطبيعيّة أمرًا مقبولًا قبل ألفي عام، ولكن يمكن فعل ما هو أفضل من ذلك في الحاضر».

لكنّ كلّ هذه المقولات مجرّد دعاوى؛ لأنّ للطروحات الإلحاديّة من التعقيد والخيال وعدم إمكانيّة التطبيق ما يختلف كثيرًا عن بساطة الإيمان بالله، وانسجامه مع الفطرة والعقل.. ففرضيّة [الله] تدلّ عليها كلّ الدلائل.. فهي أسهل الفرضيّات، وأجملها، وأبسطها، وكلّ الدلائل فوق ذلك تدلّ عليها.. ولذلك؛ فإنّها إذا ما وُضِعَت مع غيرها كان الانتصار لها لا محالة.

ومن الأمثلة القريبة على ذلك، والتي تلقى رواجًا كبيرًا لدى الملاحدة الجُدد: ما طرحه هوكينج فأسماه [التصميم العظيم].. حيث إنّ الذي دعاه إلى هذا الطرح هو حلّ معضلة الإعداد المُسبَق لكوننا بعناية، ولذلك راح يفرض هذا الحلّ الممتلئ بالغرابة، وهو أنّ هناك تريليونات تريليونات تريليونات الأكوان الأخرى.. أي 10 أس500 كون ـ كما يذكر ستيفن هوكينج في كتابه الأخير [التصميم العظيم] ـ مع أنّنا لم نشهد أيّ كون آخر غير كوننا؛ فضلًا عن تريليونات تريليونات تريليونات الأكوان الأخرى، ومع أنّ هذا ـ حتّى لو صحّ ـ فإنّه لا يحل مشكلة التصميم المُسبَق بعناية لكوننا، بل ربّما يطرح تساؤلات فلسفيّة أعمق مع تقدّم علوم الفيزياء..

وعند تطبيق شيفرة أوكام على هذه النظريّة نراها تسقط بسرعة؛ ذلك أنّها فرضيّة في غاية الغرابة والدهشة والبعد عن التجريب والاختبار واليأس التامّ في الرصد.. بالإضافة إلى كونها لم تنطلق من التجرّد العلميّ، وإنّما انطلقت من الأيديولوجيّة العلميّة والتفكير الرغبويّ.

ومن الأمثلة على تلك القوانين التي يمكن اعتبارها أدوات لمحاجّة الملاحدة: التقرير الذي نشره مجلس البحوث الوطنيّ في الولايات المتّحدة الأمريكيّة، والذي قُصِدَ منه المحافظة على سلامة تدريس العلوم واستقامته.

ومن تلك المبادئ التي نصّ عليها التقرير: أنْ تكون النتائج العلميّة متّسقة مع الأدلّة التجريبيّة والرصديّة عن الطبيعة.. وأنْ تكون لها القدرة على التنبّؤ بدقّة بخصوص الأنظمة التي يتمّ دراستها.. وأنْ تكون بعيدة عن التفسيرات المبنيّة على الأساطير، والآراء الشخصيّة، والقيم الدينيّة والإلهامات الذاتيّة، والمعتقدات الخرافيّة.. فكلّ هذه الأمور قد تكون مفيدة شخصيًّا أو اجتماعيًّا، ولكنّها ليست تفسيرات علميّة.

وهكذا عند تطبيق هذه الأسس على الكثير من النظريّات العلميّة

التي يستند إليها الملاحدة نجد سقوطها وتهافتها، وبالقوانين نفسها التي يطبّقونها على كلّ العلوم.

وانطلاقًا من هذا، سنحاول -هنا- ذِكْر أنموذجين عن مدى تخلّف النظريّات العلميّة التي يستند إليها الملاحدة الجُدد عن المنهج العلميّ؛ وفق التقرير الأمريكي الذي سَبق ذِكْره؛ وذلك في المجالين الكبيرين: علوم المادّة، وعلوم الحياة.. والتي حاولوا من خلالهما تفسير نشأة الكون ومصدر مادّته وتصميمه، وتفسير نشأة الحياة وأسباب تنوّعها؛ بعيدًا عن الحاجة إلى الله؛ وذلك من خلال تطبيق ما ورد في التقرير الأمريكيّ للعلوم.

1. البيانات الرصديّة:

تنطلق قوّة النظريّة العلميّة من إمكانيّة رصدها للتحقّق منها، فإنْ لم يتمكّن أصحاب النظريّة من إثباتها على أرض الواقع، فإنّها تبقى مجرّد دعوى لا دليل عليها، وأحيانًا تصبح أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة؛ مثل: نظريّة الأوتار الفائقة، التي ذكر بعض الباحثين استحالة رصدها، فقال: «نظريّة الأوتار تحتاج لمصادم هيدرونيّ بحجم مجرّة لاختبارها، وهذا غير ممكن»(1).

وقال عن [النظريّة إم] التي جاء بها هوكينغ: «لو قلنا ـ طبقًا للنظريّة ـ إنّ الكون خَلَق نفسه فمن أوجد [النظريّة إم]؟.. ومن أوجد القوانين الفيزيائيّة الخاصّة بها؟.. ورغم ذلك فلا توجد لها معادلة فيزيائيّة حتّى الآن.. أطلب منهم أن يكتبوا معادلة فيزيائيّة.. لن يفعلوا؛ لأنّهم ببساطة لا يمتلكونها»(2).

وقال العالم [روجرز بنروز]، وهو الفيزيائيّ الشهير الذي أثبت مع هوكينج حدوث الإنفجار الكبير مُعلّقًا على كتاب [التصميم العظيم]: «على

(1)عالم الفيزياء الملحد ستيفن هوكينج وأفكاره الإلحاديّة الخياليّة في نظر العلماء والمتخصّصين، م.س.
(2)م.ن.

عكس ميكانيكا الكمّ؛ فإنّ [النظريّة إم] لا تملك أيّ إثبات مادّيّ إطلاقًا»[1].

وقال الفيزيائيّ وعالم الفضاء [مارسيلو جليسر]: «ادّعاء الوصول لنظريّة نهائيّة يتنافى مع أساسيّات وأبجديّات الفيزياء والعلم التجريبيّ وتجميع البيانات، فنحن ليس لدينا الأدوات لقياس الطبيعة ككلّ، فلا يمكننا أبدًا أنْ نكون متأكّدين من وصولنا لنظريّة نهائيّة، وستظلّ هناك دائمًا فرصة للمفاجآت؛ كما تعلّمنا من تاريخ الفيزياء مرّات ومرّات.. وأراها ادّعاءً باطلًا أن نتخيّل أنّ البشر يمكن أن يصلوا لشيء كهذا.. وأعتقد أنّ على هوكينج أنْ يدع الله وشأنه»[2].

وقال الفيزيائيّ [بيتر ويت] من جامعة كولومبيا: «لست من أنصار إدخال الحديث عن الله في الفيزياء، لكنْ إذا كان هوكينج مصرًّا على دخول معركة الدين والعلم، فما يحيّرني هو استخدامه لسلاح مشكوك في صلاحيّته أو فاعليّته؛ مثل: [النظريّة إم]»[3].

وقال فيلسوف الفيزياء [كريج كالندر] من جامعة كاليفورنيا ساخرًا: «منذ ثلاثين عامًا صرّح هوكينج بأنّنا على أعتاب نظريّة كلّ شيء، وبحلول عام 2000 وحتّى الآن في عام 2010.. لا شيء.. لكنْ لا يهمّ، فهوكينج، رغم ذلك قرّر أن يفسّر سبب الوجود؛ بالرغم من عدم وجود النظريّة.. إنّ ما يتحدّث عنه هو مجرّد حدس غير قابل للاختبار أبدًا»[4].

وقال العالم [جون بترورث] العامل بمصادم الهادرون في سويسرا: «[النظريّة إم] خارج نطاق العلم»[5].

---

(1)م.ن.

(2)م.ن.

(3)م.ن.

(4)م.ن.

(5)م.ن.

وقال [د. هاميش جونستون] محرّر موقع عالم الفيزياء، وهو يعبّر عن خوفه من تأثّر الدعم الحكوميّ للبحث العلميّ في بريطانيا؛ تبعًا لتصريحات هوكينج: «توجد فقط مشكلة صغيرة؛ وهي ضحالة الدليل التجريبيّ للنظريّة؛ بمعنى آخر فهناك عالم كبير يخرج بتصريح للعامّة يتحدّث فيه عن وجود الخالق؛ اعتمادًا على إيمانه بنظريّة غير مثبتة.. إنّ الفيزياء بحاجة لدعم العامّة حتّى لا تتأثّر بتخفيض النفقات؛ وهذا سيكون صعبًا جدًّا إذا ظنّوا أنّ معظم الفيزيائيّين يقضون وقتهم في الجدال عن ما تقوله نظريّات غير مثبتة عن وجود الخالق»[1].

لكنّ الملاحدة الجُدد، يحتالون أحيانًا كثيرة عند طلب الدليل، حيث إنّهم يصادرون على المطلوب، ومن الأمثلة على ذلك التلاعب بمفاهيم التطوّر، حيث إنّ نظريّة التطوّر تحمل مفهومين: الأوّل: وهو التطوّر الكبير، وهو المعروف عند الإطلاق، ويعني التغيّر في الصفات المورفولوجيّة والجينيّة؛ ما يتسبّب في الانتقال من نوع إلى نوع آخر. والثاني: هو التطوّر الصغير، ويشير إلى مقدار التغيّر في تكرار المورث في العشيرة، ويتمّ التغيّر فيه على مستوى النوع الواحد نفسه؛ كتطوير كائن حيّ لمقاومته نحو جسم غريب، أو تغيير لون لجلد، أو تغيير في حجم عضو معيّن من الجسم، أو نحو ذلك.

وهذا النوع الثاني لا إشكال فيه؛ ذلك أنّ هجرة الأوروبيّين؛ مثلًا، إلى أستراليا واختلاطهم بالشعب الأسترالي الأصليّ، أدّت إلى اختلاط العرقين، وقد أثّر ذلك على أولادهم، بحيث أصبحت أشكالهم تمزج بين الأصلين.. وهم يعبّرون عن هذا بالتطوّر البيولوجيّ للأستراليّين.. ومن أمثلته -أيضًا- ظهور فيروس الأنفلونزا كلّ مرّة بصورة جديدة، بحيث لا تؤثّر فيه اللقاحات السابقة.

---

(1)م.ن.

والمغالطة التي يمارسها الملاحدة في هذا الجانب هي أنّهم إذا طُولِبُوا بدليل على التطوّر الكبير يذكرون أدلّة التطوّر الصغير، وقد عبّر عن هذا الخلط [مايكل بيهي] بقوله: «الداروئيّة الحديثة فسّرت التطوّر الدقيق بشكل رائع، لكنْ عند الحديث عن التطوّر الكبير؛ فعلى التطوّريّون أن يصمتوا»[1].

وذَكر [نيكولاس كومنينلس]، الأستاذ في جامعة ميزوري ـ كنساس، في كتابه [Darwin's Demise]، أنّه من الأخطاء الشائعة في الاستدلال العلميّ: استخدام التكيُّفات الملحوظة في التطوّر الصغير لافتراض صحّة التطوّر الكبير، والانتقال من نوع إلى نوع آخر[2].

2. التنبّؤات الدقيقة:

من أهمّ أدلّة مصداقيّة النظريّة العلميّة هو صدق تنبّؤاتها في حال عدم إمكانيّة إثباتها عمليًّا، والأمثلة على ذلك في تاريخ العلوم كثيرة، ومن أشهرها وأقربها: ما ذكرته وسائل الإعلام من أنّ العلماء رصدوا للمرّة الأولى موجات جاذبيّة، وهي تموّجات في المكان والزمان، تنبّأ بها ألبرت أينشتاين، بالتزامن مع رصد ضوء ناجم عن الحدث الكونيّ نفسه، ولأجل ذلك فاز ثلاثة علماء أميركيّين اكتشفوا تلك الموجات بجائزة نوبل في الفيزياء، وأثبت هؤلاء الباحثين أنّ النتائج التي اكتشفوها تساهم في تأكيد نظريّة أينشتاين[3].

لكنّ الأمر مختلف تمامًا مع كلّ الدعاوى والطروحات العلميّة التي طرحها الملاحدة، وحاولوا من خلالها إثبات الاستغناء عن الخالق، بل إنّ الاكتشافات العلميّة أثبتت عكس مقصودهم.

(1) سرور، هيثم طلعت علي: الردّ على الملحدين العرب، لا ط، لا ت، ص250.

(2)م.ن.

(3) انظر: مقالة بعنوان: «نبوءة أينشتاين تتأكّد.. رصد متزامن لموجات الجاذبيّة بين أميركا وأوروبا تنبّأ بها قبل أكثر من 100 عام»، هاف بوست عربي، رويترز، تمّ النشر: 10:44 2017/10/17. على الرابط التالي: http://www.huffpostarabi.com/2017/10/17/story_n_18291660.html

والأمثلة على ذلك في علوم المادّة كثيرة جدًّا، وهي تشمل كلّ النظريّات والنماذج التي حاولت أن تتخلّص من وجود بداية للكون؛ مثل: نظريّة الحالة الثابتة، والكون المتذبذب، وغيرهما.

أمّا في علوم الحياة، وهي تلك النبوءات المرتبطة بنظريّة التطوّر، فكلّها تخلّفت، بل كلّها أثبت الزمن عكسها تمامًا، فقد كان داروين ـ بعد طرحه لنظريّته ـ يطمع في أن تثبت الاكتشافات اللاحقة في السجلّ الأحفوري نظريّته، وبناءً على ذلك، فإنّ التنبّؤ الدقيق لنظريّة التطوّر هو اكتشاف كمّيّات كبيرة من الأشكال الانتقاليّة.

لكنْ صار المستقبل الذي كان يحلم به داروين بحدّ ذاته عبئًا على الداروينيّة؛ وكما يقول هنري جي المحرّر العلميّ في مجلة الطبيعة: «إنّ عمليّة أخذ مجموعة من الحفريّات والقول بأنّها تعكس وجود سلسلة قرابة هي في الواقع ليست فرضيّة علميّة يمكن إخضاعها للاختبار، وكلّ ما في الأمر أنّها مجرّد حكاية أو حدّوته من أحاجي منتصف الليل المسلّية التي قد تكون مُوَجِّهَةً أو مُرْشِدَةً للإنسان في كثير من الأحيان؛ إلا أنّها ومع ذلك لا تستند لأيّ أساس علميّ»[1].

كما اعترفت مجلّة [National Geographic] مؤخّرًا بقولها: «مضيء ولكنْ متقطّع، يبدو السجلّ الأحفوريّ؛ كفيلم للتطوّر فقد منه 999 من أصل 1000 صورة».

وهكذا يعترف التطوّريّون أنّ 99.9 بالمائة من الدليل مفقود، ومع ذلك يحاولون دائمًا خداعنا بنماذج مزيّفة لحلقات انتقاليّة؛ ليبرّروا بها نظريّتهم.

ولم يكنْ الأمر قاصرًا على عدم اكتشاف الحلقات المفقود، بل إنّ الاكتشافات الأحفوريّة تثبت عكس كلّ التوقّعات التي تبنّتها الداروينيّة، ومن الأمثلة على ذلك: تلك الحفريّة البشريّة التي عُثِر عليها في أسبانيا

(1) نقلًا عن: يحيى، الدّاروينيّة في الزّمن القديم، م.س، ص34.

في سنة 1995م، على يد ثلاثة علماء أسبان متخصّصين في الأنثروبولوجيا القديمة من جامعة مدريد، وقد كشفت الحفريّة عن وجه صبي في الحادية عشرة من عمره كان يبدو مثل الإنسان العصريّ تمامًا، على الرغم من مرور800.000 سنة على وفاته.

وقد هزّت هذه الحفريّة قناعات المكتشفين لها، فقد قال [أرساجا فريراس]، وهو أحد المكتشفين: «لقد توقّعنا أن نجد شيئًا كبيرًا، شيئًا ضخمًا، شيئًا منتفخًا... كما تعلم، شيئًا بدائيًّا. لقد توقّعنا أن يكون غلام عمره 800.000 سنة مشابها لطفل توركانا. ولكن ما عثرنا عليه كان وجهًا عصريًّا تمامًا... بالنسبة لي كان الأمر مثيرًا للغاية... إنّ العثور على شيءٍ كهذا غيرِ متوقَّع على الإطلاق لهُوَ من الأشياء التي تهزّ كيانك. فعدم العثور على حفريّات أمر غير متوقّع، تمامًا مثل العثور عليها، ولكنْ لا بأس. إلا أنّ أروع ما في الأمر هو أن تجد شيئًا في الماضي كنت تعتقد أنّه ينتمي إلى الحاضر. إنّ الأمر أشبه بالعثور على شيء مثل جهاز تسجيل في كهف جران دولينا. سيكون ذلك مدهشًا للغاية؛ لأنّنا لا نتوقّع العثور على أشرطة كاسيت وأجهزة تسجيل في العصر البلستوسيني الأدنى. وينطبق ذات الشيء على اكتشاف وجه عصريّ عمره 800.000 سنة. لقد اندهشنا جدًّا عندما رأينا هذا الوجه»[1].

خاتمة:

في الختام، من النتائج المهمّة التي نخلص إليها من خلال العرض السابق؛ ما يلي:

1. يدّعي دعاة الإلحاد الكلاسيكيّ والجديد دائمًا كونهم أصحاب المنهج العلميّ، وأنّ مواقفهم ناشئة عمّا يمليه العلم، وأنّ المغالطات والخيال

(1)م.ن، ص65.

والوهم صفة للمتديّنين؛ هم بريئون منها، لكنّ الواقع يثبت خلاف ذلك تمامًا.

2. الأدلّة الواقعيّة كلّها تشير إلى أنّ ما يمارسه الملاحدة من تفسيرات علميّة للكون والحياة، وإبعادهما عن الحاجة إلى الله ليس سوى مغالطات كبيرة لا حظّ لها من العلم، ولا من المصداقيّة، بل إنّ العلم نفسه يتبرّأ منها.

3. أوّل مغالطة علميّة يقع فيها الملاحدة هي انطلاقهم من التفكير الرغبويّ؛ بدل التفكير الواقعيّ، ومن الأمنية لا من الواقع، ومن الهوى لا من الحقيقة، ولهذا يستبقون المقدّمات بالنتائج، ويؤوّلون النتائج أو يتخطّوها في حال مخالفتها لمقاصدهم.

4. من أخطر المغالطات التي يقع فيها الملاحدة، وخصوصًا الجُدد منهم، تناقضهم تمامًا مع المناهج العلميّة المقرّرة، بل والمطبَّقة في كلّ العلوم، فهم يطبّقونها في كلّ شيء؛ إلا في الحقائق التي قد تدعوهم إلى الإيمان بالله، ولذلك فهم يكيلون بمكاييل مزدوجة، تجعل من العلم وسيلة لنشر الأيديولوجيا، لا وسيلة لنشر الحقائق.